شذرات من عالم قيد الولادة

او كيف نكتب على جدار العزل بحيث يستطيع من على الجانب الاخر ان يقرأه.

صبحي الزبيدي

"انني اومن ان اشكالا من التعبير والتي هي بالضرورة غير تقليدية بل مهجنة ومجزأة هي التي يجب ان تستخدم في التعبير عنا. ما فعلته في (هذا الكتاب) هو انني وبصورة متعمده صممت نموذجا مختلفا عن تلك النماذج التي في العادة نجدها في الميديا والعلوم الانسانية وقصص الخيال. انها رؤيتي الخاصة للفلسطينيين كمجموعة بشرية مشرذمة، فاعلة ومفعول بها، فخورة، دافئة، بائسة مضحكة، صامدة، ساخرة، عصابية، دفاعية، حازمة، جذابة ومثيرة للاهتمام." **ادوارد سعيد، ١٩٨٦، ص ٦.**

في مقدمته لكتاب بعد السماء الاخيرة **يتحدث ادوارد سعيد عن الظروف التى ادت الى ذلك الكتاب. في اوائل الثمانينات كان سعيد يعمل مع الامم المتحدة كمستشارا للمؤتمر العالمي عن المسألة الفلسطينية** (ICQP) **سنة ١٩٨٣. يتذكر سعيد المصاعب البيروقراطية التي واجهته من مؤسسة الامم المتحدة نفسها و من الدول الاعضاء وخصوصا الدول العربية فيما يخص فلسطين وتمثيلها او الحديث عنها. لم يكن هناك قبول لكل الوثائق والدراسات التي حاول سعيد توفيرها للمؤتمرين من اجل رؤية اعمق واشمل للموضوع. حتى معرض الصور الفوتوغرافي الذي عمل من اجله مع المصور جين مور تعرض هو الاخر للاختزال. لهذا السبب**

قرر سعيد ان يعمل على هذا الكتاب، يقول: لهذا السبب قررت انا وجين مور ان نعمل معا. قلنا لبعض دعنا نستعمل الصور الفوتوغرافية والنص لكي نحكى عن الفلسطينيين شيئا لم يحكى من قبل. ولكن المشكلة هي ان الكتابة عن او تمثيل الفلسطينيين –بكل ما تعنيه الكلمة– بطريقة طازجة (fresh) هي جزء من مشكلة اعم. المشكلة ليست ان احدا لا يتحدث عنهم او يصورهم. الصعوبة تكمن في ان الجميع بما فيهم الفلسطينييون انفسهم يتحدثون كثيرا جدا عن المسألة (ص، ٤)

اذكر انني وجدت كتاب سعيد هذا بالصدفة في متجر كتب قديم على شارع ميرسر في محيط جامعة نيويورك. كنت في ذلك الوقت اعمل في النهار موظفا في مكتبة الجامعة وادرس في الليل في كلية السينما ولهذا كنت اقضي معظم وقتي في محيط الجامعة. اوقات الاستراحات كنت اقضيها في حديقة واشنطن العامة والتي تقع الان في منتصف مباني الجامعة في تلك المنطقة من نيويورك المسماة القرية. هذه الحديقة على صغر مساحتها هي من اكثر الحدائق ازدحاما في نيويورك. هناك ترى عالم من كل الاجناس، فنانون، لاعبو سيرك، وعاظ، تجار مخدرات، سياح ...الخ. سوق كبير لبضائع مختلفة عن تلك التي تملا حوانيت المدينة. رغم كل هذا فان بامكانك الجلوس طوال النهار والقراءة في كتابك دون ان يزعجك احد.

في تلك الايام كنت احمل كتاب سعيد في اوقات الاستراحة واذهب الى حديقة واشنطن وفي احد تلك الايام لاحظت جمعا كبيرا حول رسام يرسم لوحة كلاسيكية من عصر النهضة بالطبشور علي الارض. اقتربت اكثر ولاحظت الدقة التي يرسم بها والسرعة ايضا. كان مثيرا للانتباه ببرهان الجمع من الناس الذي

كان يقف للتأمل. الشاب الفنان كان منهمكا في الرسم ولا يعير احدا اي انتباه. في لحظة ما جاء فنان اخر وكان يبدو على شكل بهلوان. كان يحمل مسجلة صوت كبيرة وما ان وضعها على الارض اشعل الموسيقى وكانت اغنية Stayin Aliveلل Bee Gees وبدأ يرقص بحركات بطيئة ويتعرى. كان يجيد الغناء مع الاغنية ويتحرك بطريقة جميلة، وبدأ يجذب انتباه الناس الذين اخذوا يتجمعون حوله. الشاب الرسام يأخذ استراحة ايضا، يقف ويشعل سيجارة اخرى ويبتسم للمشهد. البوليس يلاحظ الفنان الذي بدأ يتعرى فيأتي مسرعا باتجاهه. الفنان يلاحظ البوليس فيهرع الى قبعة موضوعة على الارض. يدور على الناس بسرعة ليجمع ما يكرمون به عليه من البقشيش. يسرع الى المسجلة يلتقطها ويهرب. بضعة امتار نراه يقف ثم يعود مسرعا باتجاه الرسام الى علبة الكرتون الصغيرة الموضوعة على طرف الرسمة. ياخذ حفنة فراطة من قبعته ويرميها في العلبة ويهرب من البوليس.

الرسام يبتسم، كذلك الذين لاحظوا المشهد. على طرف الرسمة وتحت احد زوايا العلبة الكرتونية الاحظ صفحة منزوعة من مجلة. بين الحين والاخر يحملها الرسام يتاملها ثم يعود للرسم. اقترب من الورقة وانظر الى الصورة التي يرسم منها الفنان، وادقق بين الاثنتين فيدهشني الاتقان. كنت الاحظ كيف ان بعض المارة يلاحظون الرسمة فيقفون لوهلة ثم اراهم يتاملون الرسمة ثم الرسام ثم يجلسون على الارض ليراقبوا. على زواية اخرى وبخط باهت لاحظت الاحرف Hani . هاني اسم عربي، قررت ان اتاكد فانتظرت حتى استقام الشاب من الرسم واشعل سيجارة. مرحبا، انت عربي؟ سألته مباشرة. آه انا فلسطيني لاجئ من عين

كارم، اجابني بسرعة.

تحدثنا كاننا اصدقاء قدامى، شربنا شاي مثلج وتبادلنا ارقام الهواتف، ومن ثم الزيارات. عندما تركت هاني ذلك المساء كنت اشعر بغبطة وسعادة لم اشعر بهما من قبل في مدينة نيويورك. يا لحسن حظي كنت اقول لنفسي، في غضون ايام اهتدي معا الى كتاب سعيد وعالم هاني شحادة فنان شوارع نيويورك. مصادفة عجيبة ذلك ان عالم هاني كان قريبا جدا من افكار سعيد الذي كتب في نفس المقدمة يقول: الرؤية المركبة ضرورية لاي تمثيل لنا. بلا دولة، منزوعون وبدون مركز نحن في الغالب لا نستطيع ابراز الحقيقة في معضلتنا ولا نستطيع جعل الاخرين يسمعونها. في العادة ليست لدينا سيطرة على الصور التي تمثلنا ويتم حبسنا في اماكن معدة لتبسيطنا وللتقليل من شأننا. **في هاني وجدت الاحتمال المغاير لهذا الوضع وهو ما يحاول سعيد اثارته فينا، لوحات ذلك اللاجئ الفلسطيني التي كانت تزين شوارع نيويورك لوهلة ثم تذوب وتختفي خلال اسابيع تحت اقدام المشاة كان لها حضورا جميلا في المدينة وفي اذهان كل من تقع عينه عليها.**

يمكن ان نتخيل ذلك الكم الهائل والمتنوع من الناس الذين وقفوا يتأملون هاني وهو يرسم وسألوه –من اين انت؟ وفي كل مرة هاني يجيب –انا لاجئ فلسطيني. سألت هاني في احد جلساتنا، –هل يتفاجأ الناس عندما يعرفون من انت؟ (لا، اجابني، لا اشعر انهم يتفاجئون، علامات الاعجاب التي الاحظها اكثر من علامات الدهشة؟) ربما يعود السبب في هذا لان نيويورك مدينة هجينة متعددة الثقافات واللغات والاجناس، ولكن المؤكد ان هاني كان يمتلك اداة تواصل عالمية مفرداتها

ليست محشورة او محصورة في كونه فلسطيني ولاجئ. ايقونات عصر النهضة تلك التي يرسمها هاني ليس فيها اشارات سياسية او رمزية لفلسطين ولا لمعضلة الفلسطينيين وهو ربما كان يختار تلك الايقونات لانه لاجئ في مدينة غربية، ولكي ينجو بنفسه وبفنه فان عليه ان يتحدث لغة تلك البلد، او ربما كان عليه ان يخرج من نفسه من فلسطينيته وهذا ما يتيحه له اللجوء في المنافي.

ما كان يحاول سعيد اثارته فينا في هذا الكتاب هو ابداع فضاء من التعابير الثقافية اللتي تحمل كل الغنى الذي تراكمه المنافي والعذابات المتواصلة. هذا **(بعد السماء الاخيرة)** ليس كتابا موضوعيا. هدفنا كان ان نبرز فلسطين بعيون فلسطينية وبدون ان نغض النظر عن ان الفلسطيني حتى مع نفسه يشعر كالغريب- كالاخر. الكثير من اصدقائي الفلسطينين عندما رأوا صور جان مور قالوا بانه رآنا كما لم يرانا احد غيره. ولكنا شعرنا ايضا انه رأنا كما لو كنا نرى انفسنا، داخل وخارج عالمنا في نفس الوقت. هذه النظرة المزدوجة تنير نصي ايضا. وانا اكتب اجد نفسي ابدل الاشارة من (نحن) الى (انتم) الى (هم) وانا اشير الى الفلسطينيين. الانتقالات الفجائية هذه اشعر انها انما تعيد انتاج (كيف نجرب انفسنا) وكيف تحس (انت) بنظرة الاخرين لك وكيف وانت في عزلتك تحس بالمسافة بين (اين انت) واين هم.

في نماذج التعبير الثقافي الفلسطيني يمكن الاشارة الى نموذجين يضمان في المسافة بينهما معظم ما انتج في الادب والفن. النموذج الاول يمكن الاشارة له بتلك الجملة الجميلة التي يفتتح بها جبرا جبرا روايته البحث عن وليد مسعود **يقول:** ؛تمنيت لو ان للذاكرة اكسيرا يعيد اليها كل ما حدث في تسلسله الزمني، واقعة واقعة، ويجسدها الفاظا تنهال على الورق. **ص١١ والنموذج الثاني يمثله فيلم يد الهية لايليا سليمان. في النموذج الاول نجد كيف وكأن المؤلف يريد القبض على الماضي واعادة انتاجه،**

انه يتمني لو ان للذاكرة اكسيرا يعيد اليها كل ما حدث – اي يعيدها حية من جديد، يبعثها من الماضي الى الحاضر. الذاكرة هنا هي الحية، هي الخصبة كما هو عنوان فيلم ميشيل خليفي الاول وهي البوصلة كما يشير اليها عنوان كتاب شريف كناعنة (من نسي قديمه تاه) وهي الدينامو الذي يولد كل الدراما في اعمال غسان كنفاني. انها الذاكرة نفسها التي يتمنى الاسرائيليون لو اننا لا نملكها، مثلما ورد في خطاب نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي يهود اولمرت الاخير في الكنيست – ليس لهم ذاكرة المكان– قال السيد اولمرت عنا فيما يشبه التمني.

في هذا النموذج الذاكرة هي مصنع الاشياء، المفردات والمشاعر والتراكيب الدرامية كلها مبنية في الذاكرة، وهي الحقيقة التي يصبو الهيا العمل وهي لب الحدث. تأسيس الذاكرة هو تأسيس كل شيء. الكهل الذي نراه في اي فيلم فلسطيني يقف على اطلال ما كان يبكي ويتذكر هو شخص لا يمكن لنا كمشاهدين ان نقول اننا نراه، انه شخص تتشكل هويته وماهيته في ثنايا الذاكرة التي لا نراها. انه اكثر من شخص وما نراه على الشاشة ليس الا طيفا اما الهوية فانها تحدث في العمق، في طبقات وتراكيب غير مرئية.

في النموذج الثاني نرى المفردات والتعابير وقد تحررت نوعا ما من الذاكرة، انها اعمال لا تحدث في العمق بل على السطح وهي اعمال لا تحدث في الماضي بل في الحاضر والمستقبل. المعنى في يد الهية لا يحدث خارج المفردات والاحداث

بل فيها وعليها ومنها. المعنى موجود على السطح وليس في ثنايا وخبايا تراكيب عميقة. في النموذج الاول هناك نزعة نحو الشمولية والكلية بينما في النموذج الثاني تظهر الانا العصابية المنفصمة الخارجة عن ذاتها كما يقول ادوارد سعيد. النموذج الاول يبدو وكأنه تمثيلي representational **لفلسطين بينما النموذج الثاني يبدو عرضي لها** symptomatic of it **او انه مصاب بهذا العصاب. هناك جملة احبها كتبها الراحل جيل ديلوز في مقدمته لكتاب الرأسمالية والشيزوفرانيا يقول:** شيزوفراني ماشي في الشارع احسن من عصابي نايم على السرير **وهكذا هو هذا النموذج شيزوفراني، متبدل، متغير غير ثابت على حال وغير مأسور في عصاب ما. بالطبع انا لا اقصد المرض هنا انما النموذج. النموذج الفاعل الذي همه ان يستقرأ الامكانيات والطاقات المختلفة الكامنة في الحدث. في نموذج ديلوز يبدو المريض او الشيزوفراني كأقوى شيء، بينما مثلا في نموذج فرويد تبدو النظرية عن المريض (نظرية فرويد) هي اقوى ما يمكن. المريض في نموذج فرويد انما يبرهن على صحة نظرية فرويد، بينما المريض في نموذج ديلوز يبرهن على صحة المريض نفسه. النموذج الشيزوفراني هذا يستدعي شكلا متغيرا**

وغير تقليدي وغير مقدس في تعابيرنا الفنية والثقافية. وهي انما الحالة التي نعيشها في هذا المنفى الكبير في الداخل والخارج، في المستوطنات والمخيمات والدبابات التي تملأ المكان.في الشعب الموزع على مساحات غير متجانسة من الشتات. في احساسنا باننا مسلوبين وفي ايماننا باننا سنصل الى نهاية الطريق، في مكان اخر من نفس تلك المقدمة يكتب ادوارد سعيد؛ نعم لقد اصبحنا ضحية وهويتنا في خطر لكن لا، لم نكن سلبيين ولا بريئين. والشغف الذي نثيره انما يبرهن على قوة كبيرة فينا، نكرانها يدل فقط على نية سيئة. . نحن تشكلنا بسرعة وبتفاوت كبير في التجربة بحيث اننا لا نشكل مجموعة سكانية من المنفيين المتألقين برؤية ونظام متكامل. ولكننا متحدثين ومشاكسين كفاية لكي لا نكون كتلة من اللاجئين المثيرين للشفقة. **(ص، ٦)**

خلال السبعة عشر عاما التي مضت منذ ان كتب سعيد بعد السماء الاخيرة **اشياء كثيرة تغيرت. الانتفاضة الاولى، ثم اتفاقات اوسلو فقيام السلطة الوطنية وما تبعها من تغيرات اجتماعية ونفسية ثم الانتفاضة الثانية وما تمخض عنها. انها سنوات دراماتيكية بالنسبة لتشكيل الوعي السياسي عند الفلسطينيين. ما حدث خلال هذه السنوات هو نضوج فكرة ان ارادتنا السياسية لا يمكن ان تتشكل فقط من شكل قيادتنا السياسية وهويتنا لا تتشكل فقط من خطابنا السياسي. فلسطين لم تعد شيء واحد رومانسي يسكن في الذاكرة، انما اصبحت اشياء متناثرة معقدة ومتناقضة احيانا. كيف تتشكل هوية ابن الناصرة وحيفا مختلف تماما عن كيف تتشكل هوية ابن او بنت رام الله او نابلس. وكذلك يختلف الامر بالنسبة للفلسطيني المولود في امريكا او المنفي في مخيم الوحدات او المهاجر الى تشيلي. هذه الفروقات بدأت تاخذ شلك الاسئلة الصعبة مع فترات اندحار الخطاب السياسي الرسمي والسائد مما بدأ يتسبب بنزوع كبير نحو التحلل من**

العمل الحزبي الكلاسيكي باتجاه العمل المؤسساتي والفردي ليس في الضفة الغربية وغزة فقط بل في كل مكان يتواجد فيه لاجئون فلسطينيون.

خلال العشر سنوات الماضية تسنت لي الفرصة ان اشارك في اكثر من مهرجان او نشاط سينمائي في اكثر من مكان في اوروبا وامريكا والعالم العربي. ما لاحظته في هذه الفترة وهذه التجربة هو كيف ان فضاءا سينمائيا فلسطينيا بدأ يتشكل. لا اقول لغة سينمائية بل فضاءا سينمائيا ان جاز التعبير. هناك افلام فلسطينية معمولة في كندا، واخرى في امريكا واخرى في اوروبا، واخرى في فلسطين ولبنان، وهي كلها افلام فلسطينية بمعنى ان صانع وموضوع الفيلم هما فلسطينيان. هناك فلسطين ما في هذه الافلام لا تخضع لخرائط جيش الدفاع ولا للاتفاقيات بغض النظر، انها فلسطين غير حقيقية او كما سماها ايليا سليمان في احد افلامه cyber palestine**، انها فلسطين المشرذمة المشتتة المبعثرة في لغات كثيرة وخيالات ومساحات. انها اجتماع الذاكرة بالفانتازيا وما يتولد عن هذا المزيج.**

جيل جديد من الفلسطينيين يتحدث لغة جديد، لغة متشابكة مع لغات العالم وثقافاته، لغة مهجنة من زواجات المنافي واختلاط العذابات او كما تصفه باحلى عبارة الشاعرة الفلسطينية-النيويوركية سهير حماد في عنوان واحد من كتبها مولودة فلسطينية، مولودة سوداء born Palestinian born black **او كما تصيغ منه الكوميدية ميسون زايد (ايضا فلسطينية - نيويوركية) نكتة مع انها قد تبكيك الا انها حتما سوف تجعلك تضحك** (انا انثى وعندي نوع ما من الشلل، وعذراء وفلسطينية كمان.

الله عنده مشاكل اكثر مني يتفضل يوقف يقول لي)[1] **انه جيل يتحدث السياسة كما هي تنهال على جسده وليس كما ترد في الاتفاقيات والبروتوكولات، جيل يعيد انتاج فلسطينيته مجبولة بعناصر اللجوء والهجرة والنفي والتنوع.**

من الافلام الجديدة والمدهشة التي شاهدتها، فيلم روائي قصير لمخرج شاب من ام الفحم اسمه توفيق ابو وائل. الفيلم مذكرات عاهر **اقتباس عن رائعة الراحل محمد شكري (الخبز الحافي) بل ربما الاصح القول انها تأويل لها. شاب عربي عاهر يعيش من وراء بيع الجنس لرجال اسرائيليين. في المرة التي نراه فيها مع عجوز اسرائيلي في سيارة يمارس فيها العادة السرية امام الكهل اليهودي نذهب معه في رحلة وكأنها استكشاف لما آل به الى هذا الخواء. العنف الذي كان يمارسه والده مع امه، الشبق الذي يسكن فيه والحرمان الذي يجعله يجعل من الخروف موضوعا جنسيا له. ثم الاحتلال الذي الذي جاء على شكل اغتصاب لأمه. الفيلم عبارة عن هلوسات لشخصية منفصمة تنبش في الذاكرة –الجسد ليس من اجل ان تثير رومانسية التوحد والخلاص، بل لتثير اصل المشكلة، اصل العصاب والذي هو مزيج من عوامل داخلية في الاسرة وعوامل خارجية وهي الاحتلال. اقول الذاكرة–الجسد وكأنني اريد القول ان الجسد في نهاية الامر هو مسرح الاحداث، كل الاحداث، بما فيها الذاكرة وكتابة التاريخ والتقسيمات الجغرافية، كلها في النهاية تترجم على اجسادنا.**

1. لقاء خاص مع ميسون زايد. فاتحة احد عروضها في مدينة نيويورك.

افضل من قراءة فيلم يد الهية او فيلم مذكرات عاهر على انها افلام تمثل او ترمز للمشكلة الفلسطينية اعتقد انه من الافضل القول ان في هذه الافلام اعراض هذه المشكلة المزمنة. انها اعمال فنية تتشكل شخصياتها واحداثها ومفرداتها من المشكلة نفسها. لا يوجد فيها ما يحتاج الى تفسير او تحليل نفسي او علاج، ذلك ان الشرذمة والانفصام هي مصدر الغنى والقوة في هذه الاعمال لانها وعكس الاعمال في النموذج الاول انما تنبش في الحاضر والمستقبل اكثر من الماضي. انها اعمال تحاول ان تقول لنا ما نحن عليه او ربما يجدر القول ــما هم عليه- ذلك ان هوية ابن الناصرة ومشاعره وشعوره بفلسطينيته يختلف عن فلسطينيين اخرين كما ذكرت.

في يد الهية نرى سوداوية وبؤس في واقع الحياة في الناصرة، عدم الثقة، الشك، عدم الاكتراث وذاتية عبثية تثير حتى الضحك. هناك في نفس الوقت ذلك التواصل مع الفلسطيني الذي لا زال تحت الاحتلال (فلسطيني الضفة) هذا نراه على شكل قصة حب لا تكتمل، لا تقطف ثمارها. هناك الاحتلال الذي يقطع الطريق امام هذا التواصل، ويجعل من استمرار الحكاية امرا شبه مستحيل. ماذا نفعل الان؟ هناك جدار اسمنتي طويل يرتفع بيننا وبين ما نسميه ذاكرتنا، بيننا وبين ما يشكل روح هويتنا -فلسطين التاريخية؟ فماذا نفعل؟ هل نعيد ترتيب الاشياء ونسمي ما تبقى لنا -فلسطين، ونكتفي ونصدق ونطبع خرائط جديدة ونخترع تاريخا جديد؟ ماذا يمكن ان نفعل بكل ذلك المخزون التاريخي فينا والذي لا نستطيع ان نشطبه. هل يقطع الجدار الفاصل جسدي عن ذاكرتي؟

في يد الهية حل جميل ومثير وممكن. انه الفانتازيا والخيال. يجب ان نتخيل كل ما نشتاق اليه ونحتاج اليه، الفانتازيا والخيال اقوى مفعولا من الجدران والحواجز وبالذات عندما يأتي الامر لموضوعة عصية على الاحتواء كموضوعة الهوية **سعيد. ص٧. تماما**

مثلما يتخيل الفنان الحيفاوي شريف واكد حلا لمشكلة الاهانات على الحواجز الاسرائيلية وبالذات عندما يطلب الجنود من الفلسطينين الكشف عن بطونهم

قبل اجتياز الحاجز.

حقيقة الامر ان شريف لا يتخيل حلا، بل هو يتخيل فقط. انه الخيال الذي يضمن سلاسة الحياة وعدم توقفها امام الحاجز. كلنا نعرف اننا لن نرى شابا او شابة فلسطينية يقطع الحاجز وهو يلبس تلك البدلة او ايا من الازياء التي تخيلها شريف. تماما مثلما نعرف ان نواة حبة مشمش لن تفجر دبابة اسرائيلية. ولكنها خيالات ممكنة، خيالات نابعة من حاجة ما، خيالات توحي الى وحشة الحقيقة. وبالذات هنا عندما تكون الحقيقة موحشة علينا ان نتخيل اكثر، وعلينا ان نحول هذه الحقيقة الى مفردات لا ان نحشر مفرداتنا في حقيقة موحشة تماما مثلما حدث لنا في خطابنا السياسي حيث حشرنا مفرداتنا وامكانياتنا في مناطق وحقائق موحشة لم تخلف لنا سوى الخواء السياسي الذي نعيشه. في ظل التقهقر والاندحار الذي نشهده منذ اوسلو وسقوط البرجين في نيويورك وسقوط بغداد وسقوط صدام وسقوط القذافي وسقوط العرب او فكرة العروبة كما قال قائد اركان الجيش الاسرائيلي قبل ايام. من اين اذن يمكن للمرء ان يستمد بعض

العزيمة والتفاؤل ان لم يكن من اساليب تعبير تحول هذا الخراب الى حالة، الى مزحة، الى نكتة الى مرحلة مؤقتة.